كيف أحيا أرطغرل المخيّلة الإسلاميّة؟

ترجمة وتحرير نون بوست

يحكي فيلم "أسد الصحراء"، الذي موله الدكتاتور الليبي معمر القذافي وأخرجه مصطفى العقاد، قصة عمر المختار – الثائر الليبي والسنوسي الأسطوري الذي حارب الاستعمار الإيطالي في أوائل القرن العشرين. ومع وصول الفيلم إلى دور السينما في جميع أنحاء العالم سنة 1981، أعجبت حركات المقاومة في فلسطين وكشمير بكلمات الرجل العجوز مختار (الذي يلعب دوره أنتوني كوين)، وهو مدرس تحول إلى قائد للمقاومة وواجه إيطاليا الفاشية في ذروتها. قال مختار للإيطاليين في الفيلم: "لقد وقفنا ضدكم لمدة 20 سنة. وبعون الله، سنظلّ متصدّين لكم حتى نهايتكم".

كرّم فيلم مصطفى العقاد (1981) عمر المختار الذي قضى 20 سنة في مقاومة الاحتلال الإيطالي لليبيا.

واجه المختار وفرقته المتكونة من مئات المقاتلين البدو الذين يركبون الخيل مسلحين بالبنادق ومرتدين الجلابيّة، جيش إيطاليا الحديث المسلح بالدبابات والرشاشات الذي كان يعامل سكان شمال إفريقيا بقسوة هائلة من خلال فصل العائلات وحرق المحاصيل والحقول وبناء معسكرات اعتقال تسبّبت في مقتل عشرات الآلاف.

رفض المختار الرد بالمثل متمسكًا بأخلاقيات الحرب في الإسلام التي تؤمن بالكرامة، حتى تجاه الأعداء. تم حظر الفيلم عند إطلاقه في إيطاليا ولم يعرض على شاشات التلفزيون إلى حدود سنة 2009. وقد جاهد العالم والمقاتل الصوفي، المختار، مثلما جاهد الإمام علي – ابن عم النبي محمد ورابع الخلفاء الراشدين. عُرف عمر المختار بلقب "أسد الصحراء" لشجاعته، بينما أشار النبي محمّد إلى الإمام علي باسم "أسد الله".

في مراجعة نُشرت في صحيفة "نيويورك تايمز" في ذلك الوقت، وصف الناقد درو ميدلتون فيلم "أسد الصحراء" – الذي شارك في بطولته أوليفر ريد وجون غيلغد – بأنه يفتقر إلى الفوارق الدقيقة ويصوّر الإيطاليين على أنهم أقسى مما هم عليه على الأرجح. وقال ميدلتون: "تظل الحملة الإيطالية في ليبيا نموذجا للإمبريالية الجامحة، لكن قد يتساءل بعض رواد السينما عما إذا كان الفيلم بمثابة وسيلة دعائية للقضية العربية. وبما أن العقاد من أصول عربية، فإن تعاطفه سيكون مع المختار ورجاله دون أدنى شك".

لم يكن فيلم "أسد الصحراء" متاحا للعرض على شاشات السينما في بعض البلدان، لكنّه أصبح متوفرا في النهاية على أشرطة نظام الفيديو المنزلي حول العالم، وتم تهريبه وعرضه على المقاتلين الذين يقاومون الاحتلال والمتظاهرين الذين يواجهون الاستبداد.

في الفيلم، حاول أحد الليبيين المتعاونين مع الدولة الإيطالية حثّ المختار على طاعة الغزاة وهو يتوسل إليه قائلا: "إنهم الحكومة التي تسيّر هذا البلد"، فأجابه المختار: "لا، لعلّهم يفتكون هذه الأرض في النهار، لكن بعون الله سنتمكّن من استعادتها ليلا". ويواصل المتعاون قائلا: "لا يمكنك الفوز في هذه الحرب، بدمك مقابل أسلحتهم".

هوليوود والمسلمون

ركّز فيلم "أسد الصحراء" على الكياسة المقبولة للحداثة الغربية، وكان بمثابة عيّنة سينمائية خارجة عن المألوف، وذلك بسبب الطريقة التي وصف بها مقاومة الاستعمار في القرن العشرين. في نظر المسلمين في جميع أنحاء العالم، لم يكن عمر المختار بطلا لليبيا فحسب، بل كان رمزا لمُثُل الوحدة العربية وبطلا مسلما ومعاديا عنيدا للإمبريالية، وقف في وجه الظلم وقاتل بشجاعة طيلة 20 سنة. قال المختار في الفيلم: "يتمثّل واجبنا تجاه الله في أن ندافع عن أنفسنا ضد أولئك الذين طردونا من منازلنا".

صدرت هذه الملحمة خلال الفترة التي ارتفعت فيها نسبة مشاهدة التلفزيون عالميا، مع انتشار الفيديوهات. ومع ذلك، لم تتجرأ سوى قلّة من الأفلام السائدة أو الإنتاجات رفيعة المستوى على سرد العدد الهائل للجرائم الإمبريالية ضد المجتمعات الإسلامية أو القادة المسلمين الموقرين.

التشهير بالعرب والمسلمين في الثقافة الغربية يشمل هذه الأفلام (من اليسار) "قرار إداري" و"أرض الوطن" و"كول أوف ديوتي" ("سلفر بيكتشر"، "شوتايم"، "أكتيفجن".

بحلول نهاية الثمانينيات، اهتز العالم بانتهاء الحرب الباردة فتنوّع الأشرار في هوليوود من المتشددين السوفيتيين إلى الرجال المسلمين ذوي البشرة السمراء الذين يضعون عمامات على رؤوسهم، حتى الفيلم اللطيف "العودة إلى المستقبل" (1985) صور الإرهابيين الطائشين على أنهم مسلمون وعرب (وبالمصادفة صوّرهم على أنهم ليبيون). وازداد الأمر سوءًا في أواخر الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي، مع صدور العروض الضخمة مثل "رامبو" (1988) و"أكاذيب حقيقية" (1994) و"قرار إداري" (1998)، مما أدى إلى انتشار الرسوم الكاريكاتورية.

في ذلك الوقت، كانت الأفلام الوحيدة التي تضمّ شخصيات إسلامية ذات صفات إصلاحيّة أفلامًا توثق السير الذاتية للنجوم، على غرار فيلم "مالكوم إكس" (1992) و"علي" (2001). وحتى ذلك الحين، كانت هذه السير الذاتية تعود لأمريكيين إما كانت هوياتهم الدينية عرضية أو تم التقليل من شأنها.

بعد أحداث 11 أيلول/ سبتمبر، وصل النقد اللاذع إلى البرامج التلفزيونية وألعاب الفيديو مثل "24"، و"أرض الوطن" و"نداء الواجب"، لإجبار المسلمين على الرضوخ للمخيلة الغربية الحاقدة والانتقامية.

في هذه الأثناء، تعمقت الحملات العسكرية التي يقودها الغرب في الشرق الأوسط وأفغانستان، تاركة وراءها سلسلة من الأنظمة العميلة والدول ذات الأغلبية المسلمة المدمرة في مناطق متعددة. وأصبح المراهقون، الذين كانوا يتحكمون في السابق بشخصيات افتراضية في ألعاب الفيديو في الحي، يشغّلون الآن طائرات دون طيار تابعة للقوات الجوية الأمريكية، تحلق فوق اليمن وباكستان والصومال لإزهاق أرواح المسلمين.

على الشاشة الكبيرة، كما في الحياة الواقعية، تم القبض على عمر المختار وعرضه على مضطهديه. فقال للجنرال الإيطالي عقب اعتقاله: "لن نستسلم أبدا. إما أن نفوز أو نموت. ولا تعتقد أن الأمر يتوقف عند هذا الحد، إذ ستضطر لقتال الجيل القادم والأجيال التي تليه. وبالنسبة لي، سأعيش أطول من قامعي". وفي 16 أيلول/ سبتمبر 1931، شُنق المختار أمام 20 ألف شخص في معسكر اعتقال في سلوق.

أرطغرل: قيامة أسطورة

في العاشر من كانون الأول/ ديسمبر، صدر عرض تلفزيوني جديد بعنوان "قيامة أرطغرل"، بُث لأول مرة

على القناة التركية "تي آر تي 1". يروي مسلسل "قيامة أرطغرل"، من كتابة وإنتاج محمد بوزداغ، قصة محارب شاب من الأناضول في القرن الثالث عشر يبدأ في مهمة البحث عن موطن دائم لقبيلته التركية، المعروفة بإسم قبيلة "الكايي"، الذين عاشوا على الترحال في سهول آسيا الوسطى. ومن هناك تبدأ رحلة البحث عن مأوى من الشتاء القارس، والتعامل مع نقص الغذاء، ويقاتلون في نفس الوقت المسيحيين والمغول.

في ذلك الوقت، كانت علاقة ما يسمى بالعالم الإسلامي متوترة مع إمبراطوريات مثل الأيوبيين والسلاجقة. في المسلسل، يسعى أرطغرل ابن سليمان شاه (الذي لعب دوره إنجين ألتان دوزياتان) إلى تحقيق حلم توحيد المسلمين وتأمين موطن لقبائل التركمان.

لتحقيق هذا الحلم، يتجه أرطغرل غربًا نحو الأناضول، وهي شبه جزيرة من المجال التركي تشكل في الوقت الحالي الجزء الأكبر من تركيا الحديثة. في ذلك الوقت، عانت الإمبراطورية السلجوقية – المهيمنة على المنطقة الأوسع بين عامي 1037 و119 – من الصراعات الداخلية والغزوات من قبل كل من البيزنطيين والمغول. تدور معظم أحداث المسلسل داخل سلطنة الروم السلجوقية، التي انفصلت عن الدولة السلجوقية الكبيرة في سنة 1077.

يواجه كل من أرطغرل ومجموعته المتكاملة من نخبة المحاربين، المعروفة باسم "آلب"، كلا من فرسان الهيكل، والصليبيين، والبيزنطيين، والمغول، فضلا عن العديد من المتعاونين معهم داخل معسكرهم الخاص والخيانات، كل ذلك بهدف تأسيس موطن لهم في الأناضول.

سرعان ما أصبح أرطغرل قائدا رئيسيا وشرع في توحيد القبائل التركية مع بدء انهيار دولة سلاجقة الروم. وقد مهدت مآثره وانتصاراته وقيادته الملهمة في نهاية المطاف الطريق لتأسيس إمبراطورية جديدة. فوريث أرطغرل، في الأساس، ابنه عثمان، هو مؤسس الإمبراطورية العثمانية.

انتهى مسلسل قيامة أرطغرل في شهر أيار/ مايو 2019 بعد خمسة مواسم. ويتألف كل موسم من 30 حلقة، مدة الحلقة الواحدة ساعتان، أي ما يعادل قرابة 150 فيلمًا. وعلى منصة نتفليكس، أين تم إصداره دوليًا، تم تعديل المسلسل ليتضمن كل موسم حوالي 80 حلقة، كل منها تدوم لـ 40 دقيقة.

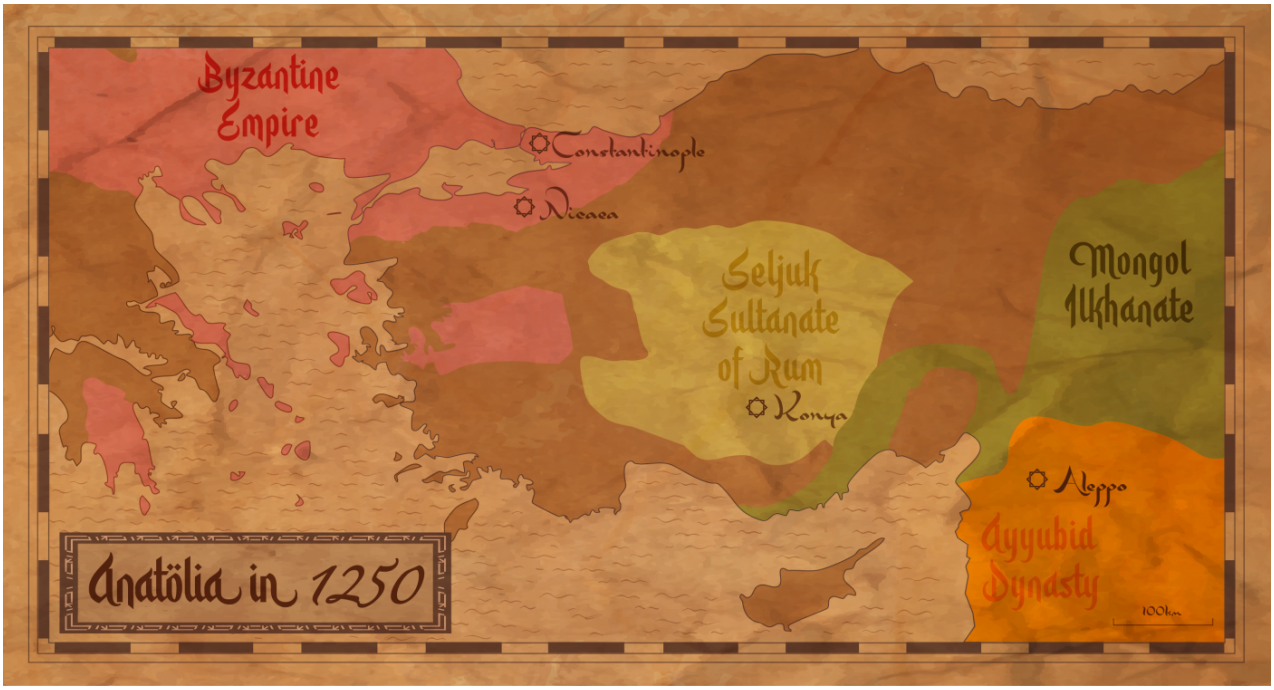

رسم توضيحي لمحمد الأعسر

تتطلب مشاهدة مسلسل "قيامة أرطغرل" جهدا وتركيزا. فكل حلقة مدتها ساعتان وتحمل الكثير من التشويق وتتضمن مغامرات ومعارك دامية. لا يزال هذا المسلسل بعد أكثر من سنة من انتهائه، يحظى بشعبية كبيرة تتجاوز حدود الزمان والمكان.

تماما مثل فيلم "أسد الصحراء"، تدور أحداث المسلسل حول تاريخ المسلمين والمثل الإسلامية ومقاومة الاستبداد. ولا تعد الرموز والقيم الاجتماعية مترابطة فحسب، بل تمثل أيضًا أحكاما ومعايير لعالم مستقل من الفكر والممارسات، يستطيع فيه المسلمون أن يروا أنفسهم أبطالا، وأشرارا وحتى متعاونين، وليس مجرد رسوم كاريكاتورية من وحي مخيلة الغرباء.

في هذا المسلسل التركي، لا تعد مواجهة الظلم أو وحشية الظالم مُثُلا سامية فحسب، بل واجبا على كل مؤمن. وعلى عكس فيلم "أسد الصحراء"، لا تتمحور قصة هذا المسلسل حول المقاومة فحسب بل حول تجاوز التحديات والنصر أيضًا.

في تركيا، فتح المسلسل آفاقًا جديدة واكتسب قاعدة كبيرة من المتابعين. وأولئك المطلعون على نزعة الاستبداد والشعبوية المتزايدة للرئيس التركي رجب طيب أردوغان، يشيرون إلى استخدام حزب "العدالة والتنمية" الحاكم هذا المسلسل كأداة، بتوظيف الممثلين والموسيقى والصور، لدفع أجندته والتأثير على جمهوره.

سواء كان ذلك مقصودا أو مجرد حدث عرضي، بات أرطغرل يمثل ما يراه العلمانيون الأتراك محاولة لأسلمة الفنون والفضاء الثقافي في البلاد. فمع التصوير المريح للطقوس الإسلامية وقيم التواضع على أنها قيم تركية بطبيعتها، اعتبر بعض المعارضين السياسيين لأردوغان المسلسل على أنه رجعي وذو نمط بدوي.

من جهتهم، حاول منتجو المسلسل، وحتى طاقم التمثيل، فصل أنفسهم عن مساعي الدولة التركية استخدام المسلسل كمصدر للمخيال الشعبي. حتى أن بعض المعلقين قد أشاروا إلى تفاصيل محددة في الحبكة التي يبدو أنها تشير إلى أن أرطغرل هو رمز للولادة العثمانية الجديدة، التي صممها حزب العدالة والتنمية، وأن أرطغرل الذي لا يموت هو في الواقع أردوغان الخالد.

اكتسب هذا المسلسل شعبية أكثر من المسلسلات الأخرى بين المسلمين في جنوب آسيا والشرق الأوسط، وكذلك في أمريكا الجنوبية وأجزاء من جنوب إفريقيا. ولطالما جذبت الأعمال التركية الدرامية الجماهير خارج حدودها، خاصة بترجمتها إلى ما لا يقل عن ست لغات. وحسب رياض منتي، مدير البث الرقمي لقناة "تي آر تي"، تم ترخيص بث مسلسل أرطغرل عبر الشاشات في 72 دولة، مدبلجًا إلى لغات مختلفة أبرزها العربية والإنجليزية والروسية والإسبانية. وقد كانت ضخامة القاعدة الجماهيرية الدولية للمسلسل مذهلة للغاية.

في غزة، يردد الفلسطينيون صغارا وكبارا أسماء شخصياتهم المفضلة ويدندنون نغمات موسيقى المسلسل. أما في باكستان، يقيم الأزواج حفلات زفاف بطابع تركي، على غرار مراسم الزواج الموجودة في المسلسل. وفي كشمير، يُسمي الأزواج أطفالهم حديثي الولادة باسم أرطغرل. وفي الولايات المتحدة، أطلق اثنان من المعجبين بالمسلسل بودكاست تحت اسم "باي واتش" للتعليق عليه وانتقاده، مما أدى بدوره إلى جمع متابعين خاصين بهم. كما أعاد المسلسل إحياء مدينة سوغورت، المعروفة باسم العاصمة العثمانية الأولى، وأصبحت محل جذب سياحي وتستقطب العديد من السياح.

في محكمة في نيوزيلندا، تصف حميمة تويان، التي كانت زوجة مواطن تركي يدعى زكريا، والذي كان من بين الذين قتلوا خلال هجوم مسجد في كرايستشيرش في سنة 2019، زوجها قائلة: "كان إمامي،

حارسي الشخصي ... كان مثل أرطغرل".

تصوير ابن عربي في المسلسل أعاد إثارة الاهتمام بأحد أشهر مشايخ الصوفية في الإسلام.

في حديثها حول ارتفاع شعبية العروض التركية في جميع أنحاء العالم، تشرح فاطمة بوتو في كتابٍ بعنوان "ملوك العالم الجديد" مدى ارتباط الجماهير بتصوير المسلمين والقيم التي تم عرضها في المسلسلات، بقولها: "لم تكن الدراما التاريخية التركية تدور حول الحروب [الإمبراطورية] في الأراضي المسلمة مثل مسلسل "أرض الوطن"، أو قصصا ملحمية ضد الغزاة المسلمين، وإنما كان المسلمون ملوكًا".

بالنسبة للكثيرين حول العالم، استجابت هذه الأعمال لتجليات النهضة الإسلامية أو العودة إلى "النظام". وتقول مينتي: "إن تردد صدى هذه الأعمال خارج العالم الإسلامي يُبيّن أنّه إذا أتيحت لنا الفرصة لسرد قصصنا، سنجد أن البشرية لديها الكثير من القواسم المشتركة بشكل يتجاوز نطاق تصورنا".

قبل بثّ مسلسل أرطغرل لأول مرة في نسخته باللغة الأردية وعرضه في التلفاز في وقت الذروة في باكستان في نيسان/ أبريل 2020، قال رئيس الوزراء عمران خان إن المسلسل أظهر قيمًا إسلامية وموروثا ثقافيًا وتاريخيًا أكثر مما تظهره هوليوود وبوليوود.

بحلول منتصف أيار/ مايو، حطمت النسخة المدبلجة باللغة الأردية أرقامًا قياسية في عدد الاشتراكات على يوتيوب. وبحلول شهر أيلول/ سبتمبر، برز نجاح العمل في جنوب آسيا من خلال مجموعة من المقالات التي سعت إلى تفسير هذا الهوس الجماهيري الكبير.

تقول إيمان سلطان شارحة سبب النجاح الساحق الذي أحرزه هذا المسلسل في باكستان: "بالنسبة للباكستانيين، كان مسلسل قيامة أرطغرل تجربة خارقة ومميزة وسط افتقار كبير لإنتاج تلفزيوني جيد،

وفي خضم أعمال رديئة منخفضة التكلفة ومقيدة الميزانية تسيطر عليها المحاباة وسياسة الدولة الانتقائية للممثلين والمنتجين، ووسط قنوات تتحدى أي إمكانية للإنتاج الإبداعي الجيد".

في الهند المجاورة، أصبح أرطغرل الكلمة الأكثر شيوعًا في نتائج البحث على الإنترنت، وفاق في نسب البحث الشخصية السينمائية والتلفزيونية الشهيرة شاه روخ خان وحتى رئيس الوزراء الهندي ناريندرا مودي. في سنة 2014، كان أرطغرل شخصية هامشية في التاريخ التركي. وبحلول سنة 2020، لم يعد مئات الملايين من الأشخاص حول العالم قادرين على تصور العالم من دونه.

تأسيس الإمبراطورية

بالنسبة لمواكبي القرن الحادي والعشرين، فإن معرفة تفاصيل حول حياة الأمير الغازي أرطغرل وقبيلته وحتى ابنه عثمان شحيحة جدا. لم يبدأ التوثيق الرسمي لتاريخ العثمانيين إلا بعد قرن من الزمان. لكن المسلسل التاريخي "قيامة أرطغرل" لم يخش من الغموض الذي يكتنف بعض الحقائق التي لا تتوفر حولها معطيات كثيرة، بل ظل وفيا للقيم الصوفية المتمثلة في الاستبطان والتطهير والابتعاد عن البعد المادي للأشياء مما ساعد في تحديد الفترة التي جرت فيها الأحداث، بالإضافة إلى الجغرافيا السياسية التي استنزفت أيام الشعب التركي ولياليه خلال القرن الثالث عشر.

يقول المؤرخ بيري أندرسون، الذي ألف كتبا عن أناضول القرن الثالث عشر في أنساب الدولة المطلقة، إن الإمبراطورية السلجوقية كانت مهتمة بالنيل أكثر من البوسفور، كما هو موضح في المسلسل. وقد واجهت القبائل التركية التي استقرت على الحدود كلاً من البيزنطيين في الغرب والمغول الزاحفين من الشرق. ويوضح: "إنّ هؤلاء المحاربين والمغامرين المتمركزين على الحدود لم يسعوا فقط إلى الحصول على الأراضي، بل كانوا أيضًا منضوين تحت النظام "الغازي" أي ينتمون لدين يرفض أي تسوية مع الكفار".

يبين مؤرخون آخرون على غرار جمال كفادر، أن المنطقة الواقعة على طول الحدود المتغيرة ربما كانت الحياة فيها أكثر سهولة، وقابلة للتغيير، كما أن سكانها من ديانات متنوعة وتسهل فيها التجارة أكثر حتى مما تتميز به حدودنا اليوم من انفتاح. وقد برز العثمانيون من هذه التركيبة وهم يشقون طريقهم نحو إقامة دولة للأتراك.

قال ناجيهان خليل أوغلو، وهو أستاذ محاضر في قسم الأدب المقارن في جامعة ابن خلدون في إسطنبول، إن العديد من المؤرخين شككوا في صحة الحقائق التاريخية في المسلسل، مشيرا إلى أن "ما يعلمنا إياه المسلسل، في اعتقادي، هو الروح التأسيسية للدولة التركية، التي تدعم التقاليد الإسلامية والنبوية". بهذه الطريقة، يخلق المسلسل ويصور ماضي ما قبل العهد العثماني عاكسا التقاليد الصوفية في ذلك الوقت، وهو يتفق مع مشروع أردوغان لما تصفه الأكاديمية الراحلة سفيتلانا بويم بـ "الحنين التصالحي".

ما يمكن تأكيده هو أنّ مقدمة شخصية ابن عربي (1165-1240)، العالم المسلم والصوفي العربي الأندلسي، الذي أصبح المرشد الروحي لأرطغرل أفضل مثال يوضح ميل المسلسل إلى هذا التعلق المعنوي بدلا من التشبث بالوقائع.

في الموسم الثاني، تم القبض على أرطغرل من قبل القائد المغولي الشرير نويان، وتم تقييده بالسلاسل إلى عمود فولاذي، إلى أن فقد وعيه بسبب التعذيب القاسي. في تلك اللحظات، يزوره ابن عربي (وهو عثمان سيرغود) في المنام ويحمل في يديه وعاء من الماء.

بعد أن ترشف أرطغرل الماء، يروي ابن عربي قصة من القرآن عن منع طيور الأبابيل أمير حرب يمني وجيشه من الفيلة من تدمير الكعبة المشرفة في مكة. تقوم الطيور بإلقاء الحجارة على الجيش الذي يقترب من الكعبة إلى أن تنتهي المعركة وتقع حماية الموقع المقدس. قال ابن عربي لأرطغرل في المنام: "عندما تكون في موقف ضعف، تذكر أن الطرف الفائز لن يكون الأقوى بالضرورة. فوحده االلّه يقرر من سينتصر". بعد ذلك، يستيقظ أرطغرل للحظات، ويبتسم، ويهمس "الحمد للّه" لأنه ذكره بأنه ليس وحيدًا، ثم يفقد وعيه مرة أخرى.

في مشاهد أخرى من المسلسل، عند الاستيلاء على قلعة بيزنطية، يقضي أرطغرل لحظاته الأولى في غرفة على ركبتيه، متوسلاً االلّه ألا يسمح للغطرسة بالتغلب عليه. وسرعان ما يزور ابن عربي القلعة وينبه أرطغرل. ويقول ابن عربي له بأنه إذا أراد دولة لا تزول، سيتعين عليه "تنشئة رجال ذوي كفاءة، وأن يحكم بالعدل والإنصاف بين جميع الأديان".

في هذا المسلسل، يبدو أن التركيز على قيم العدل والمساواة بين المسلمين وغير المسلمين هو بمثابة مثال لما يمكن أن يبدو عليه الحكم الإسلامي العادل. يقول خليل أوغلو إن "ابن عربي هو تجسيد للتقاليد الصوفية التي يقول الأتراك إنهم اكتسبوها عبر القرون، وهو تقليد يحدد الطريقة التي نعيش بها في العالم، انطلاقًا من طريقة جلوسنا إلى الطاولة وحتى الطريقة التي نقيم بها خيامنا ومنازلنا".

لكن خليل أوغلو لا يوافق أيضًا على كيفية تصوير المسلسل لابن عربي، قائلاً إنه تم اختزاله في صورة الساحر، على غرار شخصية غاندالف من ثلاثية سلسلة أفلام "سيد الخواتم"، للمخرج بيتر جاكسون (2001-2003). ويبدو أن الاختلاف الوحيد هو أن ابن عربي يحمل سبحة بدلاً من عصا، ويكرر آيات مقدسة بدلاً من الهمس بإحدى لغات ميدل إيرث الخيالية. كما أنه يستشهد بالأحاديث النبوية عندما تجابه الشخصية صعوبات بدلاً من تقديم مزحات طريفة للأقزام في أنبوب طويل. بتلك اللحية البيضاء والمفردات الحكيمة، فإن التصوير المستشرق لشخصية ابن عربي كعراف شرقي من شأنه أن يصدم إدوارد سعيد.

بقدر ما ينطوي وجوده في المسلسل على مفارقات تاريخية، يُعرف ابن عربي أيضًا بلقب القديس الراعي للإمبراطورية العثمانية. يقول أمين ليليك، أستاذ التاريخ العثماني في جامعة سالزبوري بولاية ماريلاند، إنه في ذلك الوقت "كانت تعاليم الشيخ الأكبر، كما كان يُعرف ابن عربي، قد ترسخت في الأناضول، حيث بنى وريثه الروحي، وابنه المتبنى صدر الدين القونوي، مدرسة شامخة للفكر الأكبري".

بعبارة أخرى، يمثل ابن عربي في المسلسل نموذجا للعالم والمحارب الصوفي، الذي يضع أساسا لأرطغرل لفهم العدالة الإسلامية، وجزءًا لا يتجزأ من الأساس الروحي لأي دولة مستقبلية. في ذلك الإطار، تبدو حقيقة أنهما غالبا لم يلتقيا على الإطلاق أقل أهمية لأهداف المسلسل.

سيوفٌ وحكمة

يذكر أحد معجبي "قيامة أرطغرل"، تحميد قوازي، وهو طالب فنون قتالية وروحانية من ديربان في جنوب إفريقيا، كيف شدّه المشهد الافتتاحي في الحلقة الأولى. يستهل المسلسل بحديث أرطغرل مع ديلديمير، الحداد الذي يشكّل من الفولاذ أسلحةً مثل الفؤوس والسيوف والخناجر.

في المشهد ذاته، كانا يرددان "االله هو الحق. االله هو الحي"، بينما يتناوبان على ضرب الفولاذ الساخن على السندان. ثم يتبعها أرطغرل: "لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي". وقد قال قوازي إن الإشارة إلى علي جذبت اهتمامه: "الإمام علي نموذج الحكمة الروحية والفضيلة التي لا تشوبها شائبة، كما أنه أكثر المحاربين قوة في التراث الإسلامي".

ذكر الإمام علي في ذلك المشهد لم يكن عرضيا أو سطحيا. فقد عُرف بالمحارب الشهم، الذي كان سعيه الدؤوب لتحقيق العدالة الشاملة كمقاتل وزعيم سياسي، أساسا في تشكيل صورة الزعيم المسلم "المثالي" لاحقا: مثل صلاح الدين، سلطان القرن الثاني عشر الذي استعاد القدس من الصليبيين؛ أو المقاوم عمر المختار بعد ثمانية قرون، (في فيلم أسد الصحراء، حيث يلتقط شاب يتيم اسمه علي نظارات المختار بعد إعدامه، وبها يرث المقاومة الصالحة).

وأضاف قوازي: "تأتي الإشارة المستمرة إلى الإمام علي في أنسب اللحظات وأكثرها إلهاما: في تأملات أرطغرل، وفي دعائه، وحتى مراسم الزواج. ويوصف الإمام علي بأنه قائد محاربي الألب، والشجاع، والمقدام، والفتى".

يمثل سيف ذو الفقار الخاص بعليار رمزا خالدا للحكمة والعدالة.

بدأ قوازي، الحاصل على درجة الدكتوراه في هندسة الكمبيوتر، في مشاهدة المسلسل في أواخر 2018 وطوال سنة 2019. وفي رمضان الماضي، بدأت الأسرة في مشاهدته مرة أخرى. وأوضح قائلا: "أردنا أن نعيش ونتعلم دروسه من جديد، لإيلاء اهتمام أكبر للأسس الروحية التي يتم تصويرها بالتحديد. كما أننا نشاهده مع ابننا، لنظهر له صورة جيدة للمسلمين. لذاك السبب أطلقنا عليه اسم صلاح الدين في الأساس".

رددت تعليقات قوازي كاتبة بريطانية تدعى نفيسة كارا، التي أفادت بأن أرطغرل يتبنى قيم رجولة تتعدى حدود المعارك والسيوف. فقالت: "أشير إلى الخصائص المرغوبة لدى الرجل المسلم مثل الولاء والتواضع واحترام الجنس الآخر والتعبير عن الحب. يحتاج رجالنا للتذكير بأن رجولتهم ليست مبنية على مدى قوتهم وشدتهم وصلابتهم، بل على مدى تعاطفهم وشجاعتهم وعدلهم".

في المقابل، لا يعني كل ذلك أن المسلسل يخلو من اللحظات الشنيعة في بعض الأحيان: فالعنف فيه قاسٍ لا يرحم، وغالبًا ما يكون دمويا وغير مناسب للأطفال، حيث يفقد الخونة رؤوسهم، وتقطّع أعناق الأعداء. لا يستسلم المسلسل لإرضاء النظرة الليبرالية، وقد تكون المشاهد المعروضة بالحركة البطيئة التي لا نهاية لها قاسية لبعض المشاهدين.

لكن مشاهدة المسلمين على شاشات التلفزيون والكومبيوتر كقادة عادلين، وعلماء مفكرين، ومسيطرين على مصيرهم تحمل في طياتها قوة. ففي وقت تواجه فيه العديد من المجتمعات الإسلامية في جميع أنحاء العالم الإبادة الجماعية والتطهير العرقي والتصاعد في مظاهر الإسلاموفوبيا، فضلاً عن القيادة الاستبدادية المنيعة، يجبر مسلسل قيامة أرطغرل الخواطر المكسورة.

أوضح ليليك أنه لا حاجة للنظر في الماضي البعيد لإدراك سبب شعبية هذا المسلسل. ففي أوائل القرن العشرين، كانت الإمبراطورية العثمانية لا تزال "تشكل بديلاً سياسيًا وروحيًا قابلاً للتطبيق للهيمنة الغربية

الاستعمارية" بالنسبة للعديد من المسلمين حول العالم، و"ما على المرء سوى النظر إلى الرسائل العديدة الموجهة إلى [مؤسس تركيا الحديثة] مصطفى كمال أتاتورك، من المسلمين حول العالم، وخاصةً مسلمي جنوب آسيا، الذين له لعدم إلغاء نظام الخلافة في سنة 1924. كان العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين، الممزق والمُخضع سياسيًا، يتوق إلى نوع من الإحساس بالاتحاد الروحي المتمثل بالخلافة، ومن الواضح أنه ما زال يتوق له اليوم". ولعل هذا ما يفسر سبب حظر بث قيامة أرطغرل، ومسلسلات تركية أخرى، في مصر والسعودية والإمارات.

أما بالنسبة للجماهير خارج تركيا، فإن مسلسل قيامة أرطغرل يعكس تناقضات العثمانيين، والدولة التركية الحديثة أيضا. ومن الواضح أن شخصية أرطغرل تجسد ما كان يجب أن يكون عليه العثمانيون أو العالم الإسلامي – وليس ما أصبحوا عليه الآن. ويرى خليل أوغلو أن "هذا هو أحد الجوانب الذكية في المسلسل – حيث تدور أحداثه في فترة ما بعد السلاجقة، قبل الإمبراطورية العثمانية، وبالتالي، لا وجود للترف والقصور التي نربطها مع العثمانيين".

كما قد يفسر ذلك سبب عدم تمتع مسلسل "عثمان المؤسس"، الذي يلي "قيامة أرطغرل" – أو السلطان عبد الحميد، وهو مسلسل قومي عن آخر السلاطنة العثمانيين قبل تفكك الخلافة – بنفس مستوى النجاح خارج حدود تركيا.

مع ذلك، أدى نجاح "قيامة أرطغرل" لظهور مسلسلات جديدة أيضا، مثل نهضة السلاجقة العظماء، ومسلسل بارباروس المرتقب الذي يتحدث عن خير الدين باشا، القائد البحري العظيم للإمبراطورية العثمانية، الذي عاش في القرن السادس عشر وصنفه الغرب من بين أعظم قراصنة أعالي البحار.

أرطغرل والأمل وكشمير

في شهر آب/ أغسطس 2019، زعزعت الحكومة الهندية الوضع شبه المستقل لكشمير، التي كانت رهينة نزاع استمر لعقود بين نيودلهي وإسلام أباد. وفي الأيام التي سبقت إلغاء المادة 370 من الدستور الهندي والأشهر التي تلت ذلك، فرضت الهند تعتيمًا للاتصالات على المنطقة.

في الأثناء، اعتُقل قادة الحركة المؤيدة للحرية، كما اعتُقل الأطفال الصغار واحتُجزوا. بالإضافة إلى ذلك، تم ترحيل أعضاء الطبقة الإدارية الهنود الذي يعملون في كشمير، والذين كانوا يتعاونون غالبا مع نيودلهي. وفي ظل انقطاع الاتصال والإنترنت وإغلاق المدارس وحظر التجول في الشوارع، أصبح الكشميريون معزولين عن العالم، حيث فصل الجيران والمناطق عن بعضها البعض. وكان الناس يتناقلون الأخبار فيما بينهم مباشرة.

قام الصحفيون المصورون التابعون لوكالة "أسوشيتد برس" للأنباء بتهريب أعمالهم إلى خارج كشمير عبر بطاقات ذاكرة. وتوقا للترفيه والأمل، مُرّر مسلسل "قيامة أرطغرل" التاريخي عبر وحدات ذاكرة فلاشية، كما لو كان سلعة مهربة: فقد كانت قصته بالنسبة للمسلمين الكشميريين تجسّد معركتهم.

في السابق، تأثر الكشميريون بحرب الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي، والدعوات الأيرلندية والاسكتلندية من أجل الاستقلال عن المملكة المتحدة، كما أنهم من أكبر المؤيدين لحق الفلسطينيين في تقرير المصير. وهكذا، خاطب مسلسل قيامة أرطغرل، وهو مسلسل تركي، الكشميريين، مثل كثيرين غيرهم على طول طريق الحرير، وعلى مستوى ثقافي واضح أيضًا.

في جنوب كشمير، داخل الهند، حيث تُشَوّه الكثير من وسائل الإعلام سمعة المسلمين باستمرار، بما في ذلك بوليوود، زرع المسلسل مبادئ الثقة والاحترام في مجتمع يتعرض للهجوم بشكل دائم. من جانبها، قالت الناشطة السياسية في دلهي، نبيهة خان، التي بدأت في مشاهدة المسلسل مؤخرًا: "يرسّخ أرطغرل قيم الإيمان والانضباط ومحاربة الظلم. وهو مسلي أيضًا".

لكن هذا لا يعني أن المسلسل ليس خاليًا من الرسائل اللاشعورية المربكة. وأبرز مثال على ذلك الشخصية الأرمنية خاتشاتوريان أوستا (الذي لعب دوره الممثل جوخان بيكليتينلير)، الذي أنقذه أرطغرل من الأتراك الغادرين في الموسم الرابع. يصور خاتشاتوريان شخصية الأرميني الصالح والوفي، الذي يدين لأرطغرل بحياته. لكنه قُتل في نهاية المطاف على يد الأتراك الغادرين نفسهم، مما يعكس توجهًا تركيًا واحدًا على الأقل لتبرئة الإبادة الجماعية للأرمن في أوائل القرن العشرين.

ويمكن الإشارة أيضا إلى كيفية تفكك القبيلة في كل مرة يُقبض فيها على أرطغرل ويعتقدون أنه ميت، مما يخلق الحاجة والرغبة في وجود زعيم قوي. ومن ثم يأتي الاستعداد للموت (الشهادة) في سبيل الأمة، على حد تعبير جوش كارني من الجامعة الأمريكية في بيروت.

يتكلم أرطغرل كثيرا عن "لاستشهاد" بدلاً من التعاون مع الطغاة. وفي الواقع، يقدم كل من فيلم "أسد الصحراء" ومسلسل "قيامة أرطغرل" للمسلمين المحاصرين إطارًا مرجعيًا في فهم دور المخبرين والمتعاونين مع العدو في إدامة السيطرة عليهم.

ولكن حتى ذلك الحين، كان هناك تلميحات أخرى للسلالات المرتبطة بالصراط المستقيم، أو التمسك بمسار الصالحين. فعندما عبّر أرطغرل عن خيبة أمله من جبن بعض أفراد قبيلته في الموسم الثاني، قال له أرتوك باي (الذي جسّد دوره أيبيرك بيكجان) والذي أصبح فيما بعد أقرب مستشاريه: "لا تظن أن الجميع شجعان مثلك، أرطغرل بك. فشجاعتك هي التي تميزك عن الجميع".

دروس من نهاية التاريخ

أثارت جاذبية قيامة أرطغرل، ونجاحه الباهر، تساؤلات عميقة حول الأفكار الراسخة للبنية الاجتماعية والاقتصادية لحياتنا. خلال الثمانينات والتسعينات، وبمجرد انتهاء الحرب الباردة وتحول المسلمين إلى أكباش فداء بين عشية وضحاها نتيجة لإخفاقات الغرب، قيل لنا، على حد تعبير العالم والفيلسوف فرانسيس فوكوياما، إننا وصلنا إلى نهاية التاريخ. وحُيّرنا بين مواكبة النزعة الاستهلاكية أو معارضة الحضارة الغربية. لكن قيامة أرطغرل قلب هذه الافتراضات بثلاث طرق.

في المقام الأول، يولي المسلسل اهتماما خاصا للتركيبات الثقافية لدلالات الهوية التقليدية التي يتردد صداها خارج تركيا: الموسيقى الشعبية، ورواية القصص الشفوية، والأسرة، واحترام كبار السن، والنهج الاحتفالي في تناول الطعام. كما أنه يعكس صورة المرأة القوية والحازمة كجزء من هذا التقليد وليس معارضته.

وتقول كوازي إن سر المسلسل يكمن في تصويره "للأخوة" والقيادة النسائية في الإسلام. وأوضحت أن "دور النساء في العائلة في مسلسل قيامة أرطغرل لم يُختزل في القيام بالأعمال الوضيعة والمهام المنزلية، بل كانت مصدرا للإلهام منقطع النظير مقرونًا بذكاء خارق الذي يتجسد من خلال استعراض قوي للقيادة".

على الرغم من أن الدراما التركية عادة ما تصوّر النساء على أنهن حيوانات أليفة متآمرة في الحرملك، على حد تعبير خليل أوغلو، إلا أن قيامة أرطغرل يصورهن كنماذج يحتذى بها، دون أن ينكر أن السلطة الأخلاقية والامتياز الاجتماعي لا يزالان بيد الرجال.

تلعب والدة أرطغرل، الأم هايماه، وزوجته حليمة خاتون، وأخت زوجته سيلكان، ولاحقًا شخصيات أخرى مثل أصليهان وإيلبيج خاتون أدوارًا رئيسية في المسلسل. وهن يشاركن في الحوارات ويقاتلن ويصدرن الأوامر ويحملن الموتى. لسن عناصر ثانوية، وإنما يشكلن السرد ويرفعن من شأن الدور المنسي أو الممحو للمرأة المسلمة في التاريخ الإسلامي.

في المسلسل، لم تكن النساء عناصر ثانوية وهن محوريات في الدورات المتكررة من التسامح والفداء.

وفقا لخليل أوغلو: "يرى الناس أنه من المثير للاهتمام أن يجعل المسلسل التقاليد تبدو مفيدة وضرورية وليست قمعية. أعتقد أن هذا الأمر يعدّ جزء من جاذبيته في نظر الجمهور غير المسلم أيضًا. يسمح أسلوب الحياة البدوي بترسيخ المزيد من المساواة بين الجنسين، وأعتقد أن المشاهدين يجدون ذلك جذابًا للغاية".

في المقام الثاني، يوضح مسلسل قيامة أرطغرل الكيفية التي يمكن من خلالها للمجتمعات الإسلامية أن تفرض وجودها، وهي تلك التي تسعى للبحث عن العدالة الاجتماعية والجوهر الروحي القوي. إلى جانب ذلك، يؤكد المسلسل على الشعائر الإسلامية بدءا من الوضوء وصولا إلى الصلاة والجنازات. وفي حال تم فتح بلدة أو سوق أو قرية، فإن الفاتحين يؤدون الأذان، أو الصلاة.

إن مستوى التفاصيل التي تركز على الإسلام في المسلسل تعمل على تطبيع العادات والشريعة الإسلامية الأساسية بشكل لا مثيل له في تاريخ التلفزيون الشعبي. وبهذه الطريقة، يشرع المسلسل في إعادة صياغة التاريخ الإسلامي الشائع في حلقات طويلة ومتعددة لتكون بذلك دليلا تعليميا للراغبين في التعرّف على هذا العالم الجديد. ولكل شخص يتقدم بسرعة عبر معارك السيف اللامتناهية، هناك شخص آخر يرى هذه المشاهد الطويلة وكأنها محاولة لطمس الجانب السلبي للصور الإسلامية.

يعد الانسجام بين أرطغرل وأصدقائه المقربين وزملائه، تورغوت وبامسي ودوغان في، وكذلك عليار باي (الذي يلعبه جيم أوجان) من قبيلة تشافدار المجاورة مثيرا للغاية. عليار هو الآخر، عالم ومقاتل يحمل سيف ذو الفقار، في إشارة أخرى إلى الإمام علي، الذي يقف في وجه تعصب الأسرة المتعطشة للسلطة، ليصبح أقرب حليف لأرطغرل.

ثالثا، يقترح مسلسل أرطغرل إمكانية ترسيخ مبادئ العدالة والتكافؤ في مجتمع يتميز بضرائب منخفضة،

ويوفر الراحة والرعاية للضعفاء وكبار السن والفقراء. ويعد الإمام علي بن أبي طالب النموذج الذي يحتذي به أرطغرل، في استحضار واضح لصورة المجتمع المثالي كذلك، والثني عن اكتساب الثروة الهائلة، ورفض الممارسات الدنيوية، وإعادة توزيع الثروة، والتجارة العادلة، والقضاء على الفقر.

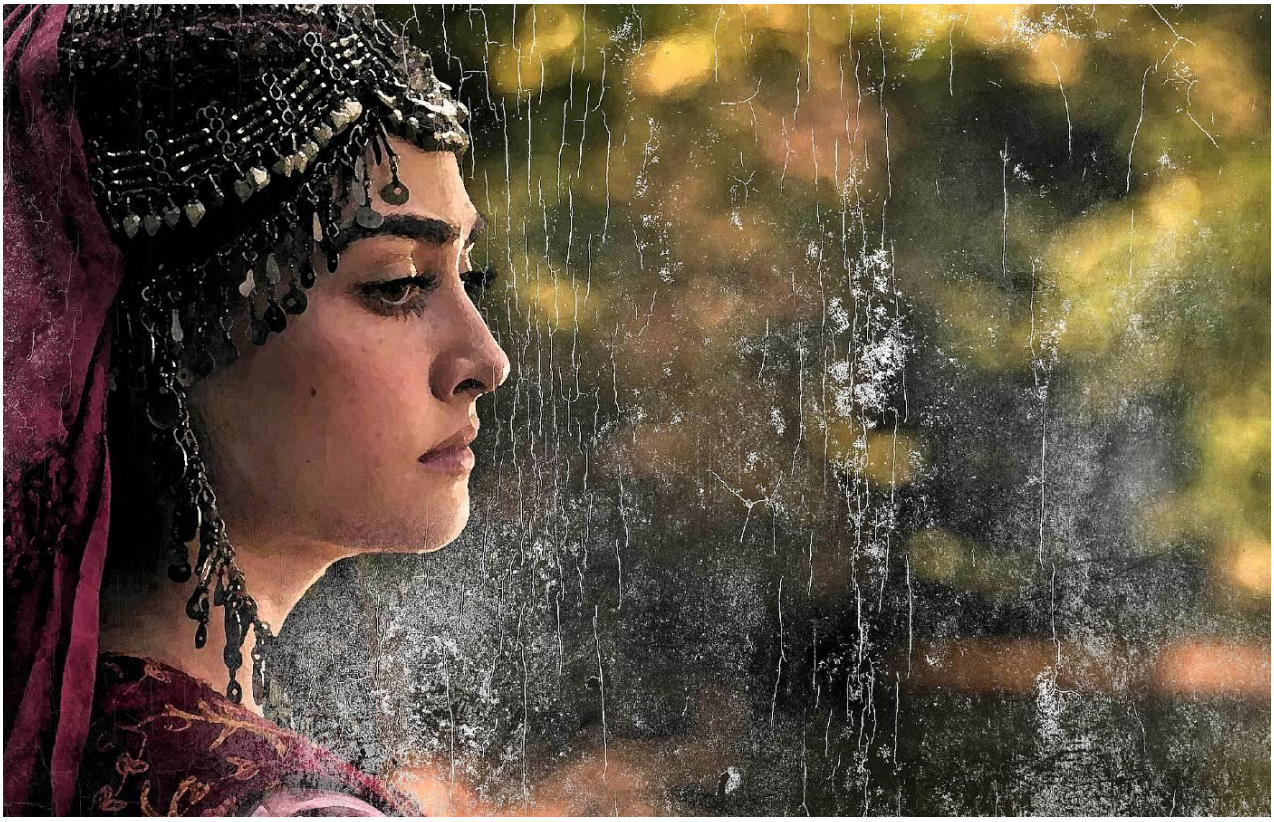

السلطانة حليمة، زوجة أرطغرل، ظهرت كرمز للقوة والقيادة في المسلسل.

في الواقع، إن الإشارة إلى الإمام علي تتعلق أيضًا بأهمية اتخاذ إجراءات صارمة في زمن الاضطهاد بدلاً من تبني الزهد السياسي أو الخنوع للسلطة، التي تطرح مباشرة المعضلات التي يواجهها العديد من المسلمين اليوم.

في هذا الصدد، يقول ليليك، أستاذ التاريخ العثماني في جامعة سالزبوري بولاية ماريلاند، إن السحر المذهل للمسلسل يكمن في قصة اللقاء بين الصحابي والمحارب. في المقابل، يعكس العالم الحديث في الحقيقة قصة انتصار التاجر – أو الشركة – على السلطة الدينية أو سلطة الدولة، في إشارة إلى النظام العالمي الرأسمالي الإنساني.

لكن هذا النموذج الرأسمالي ظلم الغالبية العظمى من الناس، وتركهم منعزلين، محرومين من حقوقهم، ويتوقون إلى بدائل. واليوم، يتساءل الخبراء عما إذا كانت الفردانية هي دين الولايات المتحدة؟

حتى عندما حارب أرطغرل لاحقًا تحت راية الدولة السلجوقية، وتولى حكمها، ظل دخيلا: فهو لا يملك سوى سيف. وبعد ذلك، عندما اكتشف أن ابنه غوندوز كان يمول مقرضي الأموال الذين يتقاضون فائدة، وهو أمر محظور بشكل أساسي بموجب الشريعة الإسلامية، قام أرطغرل بتجريده من جميع امتيازاته. وقال له: "أولئك الذين لا يسعون لنيل رضى الله، لا يمكن أن ينالوا رضاي يا بني".

لكن عدم الرضا لا يقتصر على النظام العالمي الرأسمالي الإنساني فحسب، بل ينطبق كذلك على نفاق النظام العالمي العلماني. كما يطرح المسلسل العلاقة الجدلية بين الدين والعلمانية التي غالبًا ما تُفرض على المجتمعات الإسلامية. ولعل مبادئ رفض الاستسلام لبناء عالم أفضل تجعل قصة مسلسل

أرطغرل من بين أعظم المسلسلات في المخيلة الإسلامية.
المصدر: ميدل إيست آي

رابط المقال: https://www.noonpost.com/38969/